ردمد ٢٠٨١ - ١٦٠٧

آفاق الثقافة والتراث

مجلة فصلية ثقافية تراثية

تصدر عن دائرة البحث العلمي والدراسات بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث

السنة الخامسة عشرة : العدد السابع والخمسون - ربيع الأول ١٤٢٨ هـ - أبريل (نيسان) ٢٠٠٧ م

كتاب «معجزات الأنبياء» لابراهيم نظير الأدرنوري الرومي، تاريخ النسخ سنة ١١٣٤ هجري، مكتوب باللغة التركية.

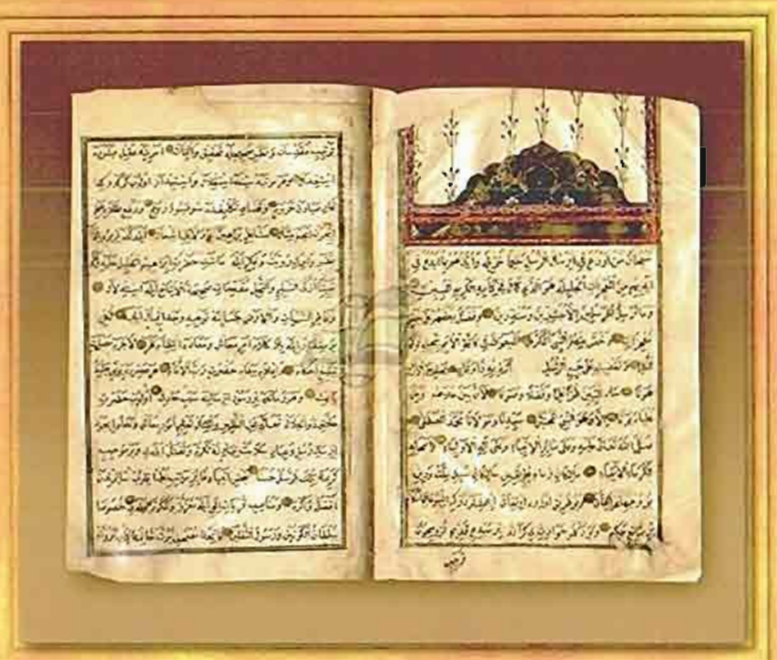

Book of "Moojizat Al-Anbya" to Ibrahim Nadheer Al-Adarnoori AL-Roumi, Copied in 1134 A.H in Turkish Language.

المغاربة في بلاد الشام وأوقافهم في القدس ودمشق من القرن ١٢م إلى القرن ٢٠م.

أ. د. الشيباني بنبلغيث
صفاقس - تونس

المقدمة :

لم تعرف حركة التنقل بين أجزاء العالم العربي الإسلامي منذ ظهور الإسلام فتورًا أو تراجعًا إلا في حالات نادرة ولظروف قاهرة.

وكانت رحلة الحج السنوية إلى الأماكن المقدسة في الحجاز أهم حركات التنقل والاتصال بين المسلمين لقضاء الفرض أولا وطلب العلم من أرض الرسالات ثانيًا.

وبرزت حركة التنقل هذه بوضوح بعد انتصار المسلمين على الفرنجة في أواخر القرن الثاني عشر وأوائل الثالث عشر الميلاديين. ثم ازداد مداها الجغرافي اتساعًا بعد دخول البلاد العربية ضمن المجال العثماني في بداية القرن السادس عشر الميلادي لتشمل مدن الشام بالخصوص. وارتبط المغرب بالمشرق مذهبيًا في ظل سيادة المذهب السني خلال الحكم العثماني.

وكان اتجاه هذه الحركة دائمًا من المغرب إلى المشرق. فسكان المغرب هم الذين يشدّون الرحال إلى المشرق فيؤمون أرض الحجاز حجاجًا وطلاب علم. وكان الكثير منهم يعرّج على بلاد الشام بعد الحجاز لزيارة أولى القبلتين وثالث الحرمين في بيت المقدس.

وهناك في بيت المقدس وما حوله من مدن الشام من استقر من المغاربة في أرضه المباركة. نفقون من موارد ثابتة ومستمرة أوقفها ذوو الفضل والإحسان من أهل المشرق على من وفد من أهل المغرب، لطلب العلم أو الجهاد في سبيل الله منذ القرن الثاني عشر الميلادي.

نسعى في هذا البحث إلى تعرّف أسباب حركة التنقل هذه، وأسباب استقرار المغاربة في بلاد الشام، وأماكن استقرارهم، وما أوقف عليهم أو أوقفوه هم من الربع والعقار، وأهمية تلك الأوقاف ودورها في ربط أهل المغرب بالمشرق في كل من القدس ودمشق، وذلك من خلال ما سجله الرحالة المغاربة أنفسهم الذين عاشوا التجربة أو شاهدوها في كل من القدس ودمشق، مركزين في الأساس على العلماء منهم والصلحاء، ودورهم في استمرار التواصل الحضاري بين المشرق والمغرب، ومؤكدين الارتباط الكامل بين الوقف ووجود العلماء المغاربة ببلاد الشام عمومًا، ومن استقر منهم هناك مدرسين وطلاب علم ومتصوفة.

ومتسائلين عن مدى أهمية هذه الأوقاف والعلماء المغاربة في بلاد الشام خلال القرون الحديثة، وهل ما زال الوقف يؤدي دوره فيما خصص له منذ قرون؟

أولا: وجود المغاربة في بلاد الشام

المغاربة اسم أطلقه عرب المشرق على من وفد على بلادهم من سكان الجزء الغربي من الوطن العربي، ويشمل هذا الاسم غالبًا كل من جاء من الأندلس أو من الأقطار المغربية المعروفة اليوم: موريتانيا، المغرب، الجزائر، ليبيا، واستقروا في بلاد الشام.

وقد بدأ استقرار المغاربة في بلاد الشام بصفة ملموسة خلال حروب المسلمين مع الفرنجة وبالتحديد أثناء حكم نور الدين زنكي ثمّ صلاح الدين، حيث ساهم بعض المغاربة في الدفاع عن البلاد الإسلامية من الغزاة الفرنجة، ومن ثمّ استقر منهم من طاب له المقام في مدن الشام وبخاصة القدس ودمشق.

١) أماكن وجود المغاربة في مدن الشام:

عاش معظم المغاربة الوافدين إلى الشام في كلّ من القدس ودمشق في أحياء عرفت باسمهم، وساعدهم على الاستقرار فيها ما خصّص لهم من أوقاف أوقفت عليهم، وباسمهم، بدءًا من نور الدين في دمشق وصلاح الدين في القدس، وتنوعت بعد ذلك ليساهموا هم أنفسهم بأوقاف عديدة على المساجد والمدارس وطرق البر.

وقد ظفر المجاهدون منهم بعد فتح القدس الشريف وجهادهم مع صلاح الدين بالحسنيين معاً:

- إسكان المغاربة في الأرض المباركة في موضع قريب من حائط البراق.
- تخصيص أوقاف كافية لحاجتهم وشؤونهم الدينية والعلمية.

ومن ثمّ تكونت ما عرف بحارة المغاربة بمدينة القدس المحررة، وتقع هذه الحارة بجوار المسجد الأقصى من جهة الغرب، ونسبت الحارة المذكورة إلى المغاربة لأنهم سكنوا بها، وأوقفت عليهم أوقاف خاصة بهم، وهذه الحارة مجاورة لما يعرف بباب المغاربة، الذي ينتهي إليها من جهة الغرب ويسمى باب النبي، وهو الذي دخل منه النبي محمد عليه الصلاة والسلام ليلة الإسراء والمعراج، وربط في جداره البراق وهو مطل على الحارة[1]، ويعرف أيضًا بحائط البراق نسبة إلى المطيّة التي عقلها الرسول قبل المعراج إلى السماء، وقد اقترن هذا المكان منذ القرن الثاني عشر الميلادي بالحُجاج المغاربة الذين استوطنوا فيه مع عائلاتهم، واستمرّ ذلك في ازدياد تقليدًا متبعًا حتى القرن العشرين الميلادي، مستقطبًا بفضل أوقافه المحتاجين من العلماء والمتعلمين والزائرين من الأتقياء والحجاج[2].

وفي نفس الفترة التي استقر فيها المغاربة في القدس حول بيت المقدس، نشأ حي آخر خاص بهم في دمشق وهو ما يدل على وحدة السبب والهدف للإقامة في المدينتين، مع بعض الفروق الخاصة بكل مدينة.

وليس من قبيل المصادفة أن تتركز الجالية المغربية بدمشق في الزوايا والأماكن الملاصقة للجامع الأموي مثلما كان الحال حول المسجد الأقصى، ما يؤكد الصفة العلمية والدينية لسكنى الجالية في المدينتين. ولكي يتمكن المغاربة من الاستفادة من الأوقاف المخصصة لذلك في المكانين. وقد وثّق لنا الرحالة المغاربة معلومات مهمة عن المغاربة في دمشق. من ذلك الرحالة الشهير المغربي ابن جبير، الذي مرّ بدمشق في أواخر القرن السادس الهجري، الموافق لأواخر القرن الثاني الميلادي، ووصف لنا أحوال المغاربة بدمشق بكل دقّة[٣]. ثم الرحالة المغربي الثاني ابن بطوطة الذي سجّل هو الآخر أخبار المغاربة بدمشق بعد ابن جبير نحو قرن ونصف، وبالتحديد في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي. ومن بين المهتمين بتاريخ المغاربة في الشام المؤرخ المعروف بأبي شامة، وهو عبد الرحمن إسماعيل المقدسي الذي كانت له علاقة شخصية بالمغاربة وتزوج من عائلة أندلسية، وزوج ابنته لأحد رجالات المغرب، ودرس العديد من المغاربة في دمشق[٤].

وذكر لنا هذا المؤرخ أصنافًا عديدة من المهاجرين إلى دمشق سواء مرّوا منها أو استقروا فيها، ومن أشهر الأسماء التي ذكرها محي الدين ابن عربي الذي حطّ رحاله بدمشق ودفن فيها، كذلك ذكر بعض العائلات الشهيرة مثل عائلة الزواوي والبكري والتلمساني وابن مالك والبرزلي.

وتؤكد هذه المصادر أنّ المغاربة عاشوا في مكانين بدمشق:

- الأول: يعرف بالمدرسة العادلية أو جوارها.
- الثاني: سفوح جبل قاسيون قرب ضريح العالم الصوفي محي الدين ابن عربي، ومنذ القرن الثاني عشر الميلادي وجدت طيلة القرون الموالية مراكز جغرافية خاصة بالمغاربة تؤكد على الرغم من تواضع بعضها الحضور المغربي بدمشق. ولكن أهم تجمع عرف هو جوار الزاوية المالكية داخل الجامع الأموي بفضل ما حبسه صلاح الدين. وحول المدرسة النورية التي أسسها نور الدين قرب بيمارستان. وهي تحمل أيضا اسم الصلاحية.

إذ يعتقد أنّ صلاح الدين هو الذي أكمل بناءها، وهي بحارة حجر الذهب، وتتوسط الطريق بين القلعة والجامع الأعظم، وقد خصصت لتعليم المذهب المالكي[٥].

أما خارج مدينة دمشق فقد استقرّ المغاربة في سفوح قاسيون غير بعيد عن تربة بني زنكي التي أصبحت تربة ابن العربي التي أقامها آخر السلاطين الأيوبيين بدمشق الملك الناصر صلاح الدين، وقد أشار أبو شامة إلى أنه كانت هناك مقبرة خاصة للمغاربة على سفوح جبل قاسيون منذ القرن الثالث عشر الميلادي تسمى: مقبرة الفقراء[٦].

ويذكر الدكتور عبد الكريم رافق أنّ المغاربة في بلاد الشام كان قبل الحكم العثماني بوقت طويل، وكانت زاوية المغاربة قد بنيت في دمشق ١٣٩٩ - ١٤٠٠، وكان وجودهم مثل ذلك في القدس وطرابلس، إلى أن أصبحت الجالية المغاربية خلال

القرن الثامن عشر الميلادي في دمشق تضم سبع طوائف. وكل طائفة لها شيخ مسؤول أمام شيخ. وهو رئيس المغاربة الأعلى بدمشق.

ويؤكد الدكتور رافق أنّ وجود المغاربة الأساسي في الشام كان بهدف المجاورة أو طلب العلم أو التجارة. إلاّ أن تدفّق المغاربة في القرن الثامن عشر الميلادي كان بسبب اعتماد الولاة على المغاربة مرتزقة. وقد وجد خان خاص بالجنود عرف بخان المغاربة. وعلاوة على استخدام ولاة دمشق لهم استخدمهم أيضًا أمير جبل لبنان. وظاهر العمر[١٠].

٢) اسباب وجود المغاربة في بلاد الشام:

من البديهي أن تتعلّق أفئدة المغاربة دومًا واستمرارًا بعد الفتح الإسلامي بمهبط الوحي وأرض الرسالات السماوية في المشرق. لذلك كان سبب الرحلة من المغرب إلى المشرق أساسًا سببًا دينيًا يتعلق بالعقيدة وواجباتها ومتطلباتها.

إلا أنّه وعبر الزمن وجدت أسباب أخرى لا تقلّ أهميّة عن السبب الديني. بل هي مكملة له ومتعلقة به. وذلك كطلب العلم من منابعه. أو الدفاع عن أرض الإسلام. والجهاد في سبيل الله لصيانة الأرض المقدسة . فإلى أيّ حدّ ساهمت هذه الأسباب جميعها في خلق تجمّعات مغربية أو أحياء معروفة باسمهم في بلاد الشام؟ ولماذا بلاد الشام دون غيرها؟

* الأسباب الدينية:

يشدّ المغاربة، كغيرهم من المسلمين في بقاع الأرض، الرحال في كل سنة في حركة دائمة إلى البقاع المقدّسة في الحجاز. حيث الكعبة المشرفة وقبر خاتم الأنبياء عليه السلام. وكانت هذه الحركة السنوية فرديّة وجماعيّة. فهناك من يذهب بمفرده، أو بصحبة عدد قليل من الرجال راجلين وراكبين، متحدّين كل الظروف الطبيعية والبشرية حتى يصلوا إلى هدفهم المنشود.

وهناك من يذهب ضمن قافلة الحج التي تنعقد من البلاد المغربية وترعاها حكومتها منذ قرون. وقد كانت الحكومة تحرص على تنظيم قوافل الحج والاهتمام بها ذهابًا وإيابًا في مجموعات تنطلق من كل قطر، وتتجمع في موكب واحد. ثم تنظم لموكب الحج المصري. وذلك كلّه عبر طريق بري معروف وطويل عبر آلاف الأميال تتوافر فيه المياه ووسائل الراحة. حتى إنه كثيرًا ما وجدت أوقاف خاصة بالذاهبين للحج، وباسمهم من النخيل في واحات البلاد المغربية، وتصرف أموالها من أجل تزويد من يحتاج من الحجاج إلى راحلة أو زاد[١١].

واقترن هذا الموكب في بعض الأوقات بالجهاد ضدّ الغزاة الأجانب بدل الحج. وظهر ذلك جليًا أثناء الحملة الفرنسية على مصر حيث فضّل الحجاج الجهاد ضدّ الفرنسيين في مصر على الحج زمن الحملة. وانضم بعضهم فعلاً إلى المحاربين المصريين ضد الجيش الفرنسي[١٢].

وكان عدد من الحجاج بعد قضاء فريضة الحج خاصة العلماء منهم، يتجهون إلى بلاد الشام لزيارة أولى القبلتين وثالث الحرمين في القدس الشريف. فهم يعرفون فضائل هذه الزيارة وما ورد فيها من الأحاديث النبويّة الصحيحة. وفضل الصلاة في المسجد الأقصى بعد المسجد الحرام والمسجد النبوي. وجاء في الحديث الشريف: من أهلّ بحجّة أو عمرة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام غفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر. أو وجبت له الجنّة[١٣].

كذلك فإنّ بلاد الشام تضمّ في ترابها قبور الأولياء والصلحاء والأنبياء. لذلك احتلت بعد الحجاز مكانة دينيّة هامّة عند المغاربة الحجاج واعتبروها جزءا من العقيدة[١١].

* الأسباب العلمية:

يعتبر المغاربة أنّ المشرق هو مهد العربية لغة القرآن. ومن أجل فهمها وفهم القرآن حرصوا دائما على الاتصال بمن يتعلمون منه شؤون لغتهم ودينهم. فكانوا يتطلعون للتعلم في المشرق وبعد قضاء فريضة الحج يتوجهون لمراكز العلم في المدينة المنورة والقدس الشريف ودمشق وبغداد. يسمعون ويستمعون. وشجعهم على ذلك عاملان:

١. ما رصد من أوقاف كثيرة للمنشآت العلميّة والدينيّة لفائدة طلبة العلم والعلماء المغتربين.

٢. فتح المشارقة صدورهم وبيوتهم للمغاربة دارسين ومدرسين مما خلق ألفة ورابطة بين الطرفين توطدت عراها على مرّ الأيام بعد أن استقر العديد منهم بالمشرق[١٢].

* أسباب الأخرى:

إلى جانب عاملي الحج والعلم وراء وجود المغاربة بالمشرق. وجدت عوامل خاصة أخرى كالتجارة. والعمل العسكري على اختلاف أسبابه. وفضلاً عن معرفة المغاربة بشؤون البحر. وممارستهم للتجارة والنشاط البحري وارتيادهم لموانئ الشام في كل العصور. فإنّ العهد العثماني شهد استقرار موجات المهاجرين المسلمين من الأندلس بشمال إفريقيا. وهؤلاء عرفوا بميلهم الطبيعي لبلاد الشام إذ يعتبرون أنّ أصولهم أموية بالأساس فارتادوا موانئ الشام تجارا ومهاجرين وعلماء يجمعهم اسم المغاربة.

أما الدافع العسكري فقد كان موجودًا في كل العصور. فقد ثبت أن صلاح الدين الأيوبي استعان بالمغاربة في حروبه ضد الفرنجة. سواء كان بتطوّع فردي. أو جماعي. فتلقى إعانة عسكرية من ملك المغرب. وكان صلاح الدين قد بعث إلى السلطان يعقوب المنصور سنة ١١٩٠ -١١٩١م يطلب إعانته بالأساطيل. لمنازلة عكا وطرابلس الشام بعد حطين وفتح بيت المقدس. فجهّز له المنصور أسطولاً بحريًا كان له أثر قوي على منع النصارى من سواحل الشام. وضمّ الأسطول الصناع والعمال والفقهاء[١٣]. وقد أكرم المغاربة بعد الحرب غاية الإكرام وأحيطوا بالرعاية والسكن والأوقاف.

وفي العهد العثماني قام المغاربة في بلاد الشام منذ القرن الثامن عشر الميلادي بدور مُهمّ في بعض الخطط خاصة العسكرية منها. فقد استعان بهم بعض الولاة في الشام في حروبهم الداخلية. وتدفقوا على مدن الشام حتّى أصبحو يشكّلون طوائف مختلفة وصل عددها إلى سبعة. على رأس كل طائفة شيخ مسؤول، ووجد خان خاص بهم يسمّى خان المغاربة. وشاركوا في حروب الولاة ومصاحبة قافلة الحج واستخدمهم أمير جبل لبنان وظاهر العمر في فلسطين[١٤]. وشارك المغاربة في الحرب ضد الحملة الفرنسية على مصر والشام. وشاركوا جنودًا في جيش السلطان العثماني[١٥]. وأخيرًا في العهد الاستعماري استخدم الفرنسيون المغاربة جنودًا لهم في الشام خلال الحرب العالمية الثانية. فاستقرّ منهم من رغب في بلاد الشام.

ثانيا: أوقاف المغاربة في الشام

١- في القدس:

تزايد عدد الوافدين المغاربة بعد تحرير مدينة

القدس من الفرنجة. فقد أسكن صلاح الدين أعدادًا من المغاربة. ممن رغب في الإقامة بالأرض المباركة. ومع الأيام كوّن المغاربة حيًا عُرف باسمهم في موقع قريب من الحائط الذي ربط به الرسول الكريم ﷺ البراق. وارتبط السكن في هذا الحي بوجود أوقاف خيرية ساعدته على الاستقرار بالأماكن المقدسة. وتضمّ هذه الأوقاف نوعين:

- **النوع الأول:** ما أوقفه صلاح الدين ومن بعده ابنه الملك الأفضل من المساكن المحيطة بحائط البراق على شؤون الجالية المغربية. ومنذ ذلك الحين اقترن اسم حائط البراق بالحجاج المغاربة الذين استوطنوا فيه مع أسرهم حتّى القرن العشرين. ومن ثمّ استقطب هذا المكان العلماء والمتعلمين المغاربة بعد أن بنيت لهم المدرسة الأفضلية وقفًا على العلم وأهله[١٠].
- **النوع الثاني:** ما أوقفه المغاربة أنفسهم. فقد وقف من استقرّ منهم بالقدس أوقافًا كثيرة من ذلك ما أوقفه العالم المغربي محمد بن شعيب المعروف بأبي مدين سنة ١٣٢٠م وتكونت من هذه الأوقاف زاوية المغاربة. وذلك تلبية لحاجات القادمين الجدد وفقرائهم وتقديم الطعام لهم في الأعياد الإسلامية. وتجهيز موتاهم.

وتمثلت هذه الأوقاف في قرية تعرف بعين كارم. تقع على تخوم القدس. ومبانٍ على طريق باب السلسلة محاذية لما عرف بحائط المغاربة. وينتفع من ذلك جميع المغاربة الساكنين في الحارة. إذ تقدّم لهم الطعام في الأشهر الحرم والأعياد الإسلامية الثلاث وتوفّر المأوى للوافدين باستمرار من المغاربة[١١].

ومن الأوقاف المهمّة بالتدس أوقاف المغاربة التي تقع بأعلى حارة المغاربة في الجهة الغربية خارج الحرم القدسي. وواقفها هو شيخ مغربي يدعى: عمر بن عبد الله بن عبد النبي المغربي المصمودي. عمّر الزاوية وأنشأها من ماله ليوقفها على الفقراء والمساكين سنة ١٣٠٣م. وتوفي بالقدس[١٢].

ومن الأوقاف أيضًا ما عرف بتكية المغربي. وهو اسم للخانقاه الصلاحية التي أنشأها صلاح الدين الأيوبي في حطين. ودعيت بهذا الاسم نسبة إلى شيخ مغربي عينه صلاح الدين شيخًا للتكية[١٣]. وفيما يلي نورد أهم الموقوفات. الراجعة للمغاربة في القدس الشريف طبقًا لما أوردته المصادر على النحو الآتي:

- مقام مسجد الشيخ عيد.
- دار وقف فاطمة بنت محمد.
- وقف الحاجة صافية بنت عبد الله الجزائري.
- دار وقف الحاج قاسم الشيباني المراكشي.
- دار وقف الحاجة مريم بنت عبد القادر المغربية.
- حاكورة الزيتونة.
- حاكورة الجوزه.
- دار الرمانة.
- طاحونة وقف المغاربة.
- دار وقف كمال الحلواني .
- حاكورة وقف المغاربة.
- دار الشيخ صنع الله الخالدي.
- حاكورة اللوند.

- الحاكورة الغربية.
- حاكورة وقف أبو مدين[٢٠].

وبفضل هذه الأوقاف المتعدّدة استقرّ الكثير من المغاربة، الذين جاؤوا إلى بلاد الشام عبر الطرق المختلفة، ومن ثمّ أدّى المغاربة دورًا بارزًا في الحياة العلمية والفكرية والدينية، خاصة فيما يهم شؤون فقه المذهب المالكي تدريسًا وإفتاءً. وربط الصلة بين المشرق والمغرب علميًا ومذهبيًا وظلت تلك الأوقاف محفوظة عبر السنين إلى سنة ١٩٦٧م، حيث استولى الإسرائيليون على الحارة وأوقافها، وطُردَ أهلها منها. وكانت الأعمال الأولى التي قامت بها إسرائيل سنة ١٩٦٧م حيال سكان القدس هدم حارة المغاربة هدمًا تامًّا وطرد سكانها، وبذلك أُزيلت أوقاف المغاربة هناك من المساجد والمدارس والزوايا، وعدد كبير من دور السكن الموقوفة.

ونفّذت إسرائيل سياسة الاستيلاء على المدينة بالاستيلاء على الأراضي المملوكة، لإحاطة مدينة القدس بضواحٍ جديدة يقطنها إسرائيليون، وبناء حي يهودي في مكانه[٢١].

وقد أزال الهدم أيضًا سلطة إدارة الأوقاف واستولت على الآف الهكتارات من أملاك الأوقاف الإسلامية، وشمل الهدم ١٣٥ عقار ومسجدين وزاويتين وسوقًا ومساحة واسعة للحرم الشريف[٢٢].

٢) في دمشق:

كان وجود المغاربة في دمشق في نفس الفترة التي وجدوا فيها في القدس، وكما أنشئت لهم أوقاف بالقدس فقد حظيت الجالية المغاربية بدمشق بأوقاف خيرية عديدة، وأولى هذه الأوقاف كانت من قبل نور الدين زنكي الذي عيّن للغرباء الملتزمين في زاوية المالكية بالمسجد الجامع المبارك أوقافًا كثيرة منها:-

- طاحونتان، وسبعة بساتين، وأرض بيضاء، وحمام، ودكانان بالعطارين، وجعل النظر في ذلك لأحد المغاربة يدعى الحسن بن علي بن سردال الجيّاني المعروف بالأسود، وهيأ لهم بجانبهم ديارًا موقوفة يسكنها قراء كتاب الله[٢٣]، واحتفظت الزاوية ببعض العقارات حتى الربع الأول من القرن الثامن عشر[٢٤].

ثم أنشئت زاوية أخرى للمغاربة، وجعلت وقفًا لهم في نهاية القرن ١٤م تسمى زاوية المغاربة، وكان لها شيخها المتصرف في شؤونهم وهي المسماة الزاوية الوطنية، وتقع خارج الشاغور، وقفها الرئيس علاء المشهور بابن وطيه، ووقف عليها حوانيت بشرط أن لا يكون النازل بها مبتدعًا ولا شرير[٢٥].

وفتحت أمام المغاربة أبواب التعلّم والتدريس في مدارس المالكية بدمشق ومدارس أخرى ينزلونها للإقامة، وكذلك المتصوفون منهم نزلوا بالخانات الموجودة بالمدن، كل حسب انتسابه الصوفي، وأحصى المؤرخون ثلاث مدارس للمالكية بدمشق.

تسمى الأولى بالصمامية يسكن بها قاضي القضاة المالكي، ويجلس فيها للأحكام، وتدعى الثانية المدرسة النورية عمرها السلطان نور الدين زنكي،وأكمل بناءها صلاح الدين خصصت لتعليم المذهب المالكي.

أما الثالثة فتدعى المدرسة الشرابشية عمّرها شهاب الدين الشرابشي التاجر[٢٦]. أقام بها ابن بطوطة عند مروره بدمشق، وفي العهد العثماني

وقف السلطان سليم عددًا من الطواحين على تكيته بالصالحية في دمشق إكرامًا لمثوى الصوفي الشهير محيي الدين ابن عربي المتوفى بدمشق سنة ١٢٤١م[٢٠].

٣) العلاقة بين أهل الشام والمغاربة:

وصف لنا كل من الرحالتين المغربيين: ابن جبير وابن بطوطة خلال مرورهما بدمشق العلاقة بين المغاربة وأهل الشام بكثير من التفصيل، وسجّل كلّ منهما في زمنه انطباعاته عن الطرفين فأورد ابن جبير في أواخر القرن الثاني عشر الميلادي قوله: ومن جميل صنع الله تعالى لأسرى المغاربة بهذه البلاد الشامية الإفرنجية، أن كل من يخرج من ماله وصية من المسلمين بهذه الجهات الشامية وسواها. إنّما يعيّنها في افتكاك الأسرى المغاربة خاصة، لبعدهم عن بلادهم، وأنهم لا مخلص لهم سوى ذلك بعد الله عزّ وجلّ فهم الغرباء المنقطعون عن بلادهم فملوك هذه الجهات من المسلمين، والخواتين من النساء، وأهل اليسار والثراء إنّما ينفقون أموالهم في هذه السبيل. وقد كان نور الدين رحمه الله، نذر في مرض أصابه تفريق اثني عشر ألف دينار في فداء أسرى المغاربة. فلمّا استبلّ من مرضه أرسل في فدائهم، وكذلك كان يفعل ذوو اليسار من التجار[٢١]. وهذا يعني مشاركة المغاربة بأعداد كبيرة في حروب المسلمين، وأنّ أحد أسباب وجودهم في الشام كان سببًا عسكريًا جهاديًا.

وفي خصوص طائفة الصوفية المتفرّغين للعبادة قال ابن جبير: وهذه الطائفة الصوفية هم الملوك بهذه البلاد: لأنهم قد كفاهم الله مؤن الدنيا وفضولها، وفرّغ خواطرهم لعبادته من الفكرة في أسباب المعايش، وأسكنهم في قصور تذكرهم قصور الجنان، وهم على طريقة شريفة وسنة في المعاشرة عجيبة[٢٢]. ويضيف ابن جبير في خصوص ما يتوافر من المرافق للغرباء بهذه البلاد قائلاً: إنها أكثر من أن يأخذها الإحصاء لاسيما لحفاظ كتاب الله عزّ وجل فالشأن بهذه البلدة عجيب جدًا.

ويقول: وهذه البلاد المشرقية كلها على هذا الرسم لكن الاحتفال بهذه البلدة (دمشق) أكثر والاتساع أوجد. فمن شاء الفلاح من نشأة مغربنا فليرحل إلى هذه البلاد. ويغترب في طلب العلم فيجد الأمور المعنيات كثيرة. فأولها فراغ البال من أمر المعيشة. وهو أكبر الأعوان وأهمها. فإذا كانت المهمة فقد وجد السبيل إلى الاجتهاد. ولا عذر للمقصّر إلاّ من يدين بالعجز. والتسويف. فذلك من لا يتوجه هذا الخطاب إليه. وإنما المخاطب كل ذي همّة يحول طلب المعيشة بينه وبين مقصده في وطنه من طلب العلم. فهذا المشرق بابه مفتوح. لذلك فادخل أيها المجتهد بسلام. وتغنم الفراغ والانفراد قبل علق الأهل والأولاد. وتقرع سن الندم على زمن التضييع. قد نصحت أن الفيت سامعًا وناديت أن أسمعت مجيبًا. ولو لم يكن بهذه الجهات المشرقية كلها إلاّ مبادرة أهلها لإكرام الغرباء وإيثار الفقراء ولا سيما أهل باديتها. فإنك تجد من بادر إلى برّ الضيف عجبًا كفى بذلك شرفًا لها[٢٣].

ويبدو أن دعوة ابن جبير لشدّ الرحال إلى الشام لطلب العلم قد لقي صداه عند المغاربة. وبعد حوالي قرن ونصف وصل الرحالة ابن بطوطة المغربي إلى الشام. وقد وصف لنا ما عرف به المغاربة بدمشق من الأمانة وقال: إنّ أهل دمشق يتنافسون في عمارة المساجد والزوايا والمدارس والمشاهد. وهم يحسنون الظن بالمغاربة. ويطمئنون إليهم بالأموال والأهلين والأولاد. وكل من انقطع

بجهة من جهات دمشق لابدّ أن يتأتّى له وجه من المعاش من إمامة مسجد، أو قراءة بمدرسة، أو ملازمة مسجد يجئ إليه فيه رزقه، أو قراءة القرآن، أو خدمة مشهد من المشاهد المباركة، أو يكون كجملة الصوفية بالخوانق، تجري لهم النفقة والكسوة، فمن كان بها قريبًا على خير لم يزل مصونًا عن بذل وجهه محفوظًا عما يزري بالمروءة، ومن كان من أهل المهنة والخدمة فله أسباب أخرى من حراسة بستان، أو أمانة طاحونة، أو كفالة صبيان يغدو معهم إلى التعليم ويروح، ومن أراد طلب العلم والتفرغ للعبادة وجد الإعانة التمة لذلك[٣٠].

وتؤكد الدكتورة ليلى الصباغ أن الوافدين من المغاربة على بلاد الشام ظلوا ينتقلون طيلة العهد العثماني كطلبة علم وعلماء، بين مكة والمدينة والقدس ودمشق وطرابلس وحلب واستانبول، لينالوا علمًا أو ليتصلوا بعالم فأشرفوا على خزائن الكتب والتدريس والوعظ والإفتاء، حتّى القضاء على المذهب المالكي[٣١].

وساعد على ذلك كما تذهب الدكتورة الصباغ أن أهل الشام كانوا معجبين بالمغاربة الوافدين عليهم، يكبرون فيهم همّة اقتحام المشاق لطلب العلم والعبادة، ولذلك تولوا خططًا علميّة ودينيّة في التدريس والوعظ في المدارس والمساجد، وتولوا الإفتاء على المذهب المالكي، والحنفي وأسندت إليهم خطط القضاء والأذان في المساجد، وكان من بين الذين ختموا صحيح البخاري في الجامع الأموي صاحب كتاب نفح الطيب المقري الذي وجد حظوة لم ينلها غيره من العلماء الوافدين[٣٢]. حتّى على المستوى السياسي دخل المغاربة مجال السياسة، فقد قرّب إسماعيل باشا العظم إليه خلال القرن الثامن عشر الميلادي المغاربة، فبلغوا ذروة نفوذهم في عهده، فاستخدم بعضهم في المراكز السياسية فعيّن محمد آغا المغربي وكيل خرج، وأشرف على عقد الصفقات لتمويل قافلة الحج واستعمل منهم عددًا جندًا في حروبه مع الفلاحين، حتى تسبب بعضهم في أذيّة الفلاحين ممّا جعل رؤساء طوائف المغاربة السبعة، يضعون ميثاقًا فيما بينهم تعهدوا فيه بأن يكفلوا جميع المغاربة المتزوجين، الذين لهم أنشطة اقتصادية وتبرؤوا من غير المتزوجين ومنعوا دخولهم الزاوية بسلاحهم[٣٣].

٤) أشهر العلماء المغاربة في دمشق:

أوردت المصادر العديدة عددًا كبيرًا ممن اشتهر بالعلم خلال الفترة الحديثة، ومعلوم أن هؤلاء العلماء كانوا ينفقون من موارد الأوقاف على مدارس المغاربة وغيرها، وقد أورد بوزي Pouzet في دراسته عددًا من العلماء المغاربة واختصاصاتهم العلمية وأنشطتهم والمدارس التي درسوا بها، والأماكن التي ارتادوها، وأكد على أنّ كثيرًا من المغاربة اشتهروا في ميدان التصوف، ودراسة الحديث الشريف، وكذلك علم القراءات[٣٤]. وذلك إلى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي. أما الدكتورة ليلى الصباغ فقد أوردت أسماء عد من العلماء المغاربة إلى نهاية القرن السابع عشر الميلادي، نورد فيما يأتي من أوردته من هؤلاء العلماء في العلوم اللغوية والأدبية على النحو الآتي:

- أحمد بن شقير النحوي البارع المتوفى سنة ١٥٠٣.
- محمد بن محمد بن مغوش المتوفى سنة ١٥٤١.

وهذا العالم التونسي الأصل تعلم في تونس ثمّ

رحل إلى إستانبول. حيث قرّبه السلطان سليم. وأسند إليه منصب قضاء العسكر. ثم دخل دمشق وشهد له أفاضلها بالعلم والتحقيق. خاصة في علوم التفسير والعربية والمنطق والكلام والعروض والقراءات والمعاني والبيان. ثم توفي بالقاهرة.

- عبد العزيز المغربي المكناسي المتوفى سنة ١٥٥٦ نزيل المدينة المنورة والزائر بدمشق. وصاحب عدّة منظومات في علوم شتى دينية ولغوية.
- محمد أبو الفتح المالكي التونسي المتوفى سنة ١٥٦٧ نزيل دمشق. كان فقيهًا أصوليًا وعلاّمة في النحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والعروض. وأكثر العلوم النقلية والعقلية. وله باع طويل في الشعر والأدب.
- محمد بن إبراهيم الفاسي المتوفى سنة ١٥٩٧. الذي انتهى به المطاف إلى مصر، وكان شاعرًا فحلاً.
- عبد الله بن محمد الحسيني المغربي المعروف بالطبلاوي. المتوفى سنة ١٦١٧. العارف بعلم العروض. ومن المتقنين بالعلم فقهًا وأصولاً. ومن أعيان الأدباء نثرًا ونظمًا. وخطه يضرب به المثل في الحسن والصحة.
- أحمد بن محمد المقرّي المتوفى سنة ١٦٣١. صاحب المؤلفات العديدة. التي من أشهرها نفح الطيب.
- أحمد بن محمد الطيب الفاسي. الشهير بابن الطيب المتوفى سنة ١٧٥٦. شاعر ومتضلع في كثير من العلوم.
- محمد بن ليل الزعفراني المتوفى سنة ١٥٢٠. العارف بالخواطر العجيبة.
- محمد بن مسلم التونسي المتوفى سنة ١٥٦٩. المتعاطي لصناعة الكيمياء.
- إبراهيم بن محمد السوسي المالكي المتوفى سنة ١٦٦٦. الجامع للفنون والعلوم الرياضية وله شعر رقيق.
- محمد بن سليمان المغربي نزيل مكة الذي أخذ عنه أحمد بن تاج الدين الدمشقي. اشتهر في العلوم الغريبة كالرياضة والنجوم والآلات الفلكية.
- عبد الواحد بن أحمد الفاسي. المعروف بابن عاشر المتوفى سنة ١٦٣٤. الذي كان عارفا بالتوقيت والحساب والفرائض والطب.
- محمد بن محمد بن سليمان الفاسي المتوفى سنة ١٦٧٩. ضليع في العلوم المختلفة كالحكمة والمنطق. وفنون الرياضة والحساب. والهندسة. والعلوم الغريبة كالرمل والحروف والكيمياء.

ومن أشهر من استوطن بلاد الشام من المتصوفة في العصر الحديث:

- علي بن ميمون المغربي الغماري الفاسي المتوفى سنة ١٥١١. وهو من الشخصيات المثيرة في تاريخ الفكر الإسلامي.
- محمد المزطاري الذي وفد على دمشق سنة ١٦٨٧. وتوفي بمكة سنة ١٦٩٥. كان شيخًا للطائفة الشاذلية. وقد أخذ عنه بعض علماء دمشق وساكنيها. ومن ذلك الوقت اشتهرت الطريقة الشاذلية بدمشق وكثر أتباعها[١٠].

إذًا فإنّ وجود المغاربة العلماء والمتصوفة بدمشق ظل مستمرًا طلية القرون الحديثة مع استمرار موارد الإنفاق من الأوقاف. فقد توسع العثمانيون في مسألة تخصيص الأوقاف للجهات العلمية والدينية والتكايا بالشام. وكذلك استمر

توافد العلماء المارين من إستانبول إلى الحجاز، أو القادمين من هنا وهناك، الراغبين في الإقامة بالشام.

وفي خصوص الأوقاف هناك ما يفيد بهذا الاستمرار. فلا يزال لحدود سنة ١٩٦٦ يوجد أحد الخانات في منطقة سويقة بدمشق، كان وقفًا على الفقراء من طائفة المغاربة طبقًا لرسم التسجيل المدوّن في السجل العقاري[٣٧].

أما العلماء فلم ينقطع إطلاقًا توافدهم على الشام حتى في فترة الاحتلال الفرنسي، حيث اتجه العديد من العلماء والمتعلمين إلى بلاد الشام - وربما أخذ طابعًا سياسيًا أحيانًا - ومن أشهرهم الشيخ مكي ابن عزوز، ويوسف الروسي، والأمير عبد القادر الجزائري الذي أدّى دورًا بارزًا في إخماد فتنة ١٨٦٠ بالشام، وما تزال توجد أوقاف ذريّة، باسم أفراد أسرته بدمشق. أما الأوقاف الخيرية الراجعة للمغاربة فيبدو أنها تحولت إلى وزارة الدفاع المدني، وبعض المصالح العامة للدولة[٣٨]. غير أنّ تطور الأوقاف في المدة الحديثة المتأخرة في الشام ما تزال تحتاج إلى دراسة معمقة وشاملة تغطي كامل القرن التاسع عشر والعشرين.

الخاتمة

إن ما يمكن استنتاجه من هذه الإطلالة على تاريخ المغاربة وأوقافهم في بلاد الشام، أنّ وجود المغاربة في هذه البلاد على اختلاف أسبابه كان أمرًا طبيعيًا. يحصل بين عناصر بشرية ذات امتداد جغرافي وحضاري واحد، ولها تفاعل بالتنقل واللقاء على دروب مختلفة فكرية ودينية وعسكرية.

ولا شك أن الوقفيات الخيرية العديدة التي صاحبت وجود المغاربة بلاد الشام منذ القرن الثاني عشر الميلادي ابتداءً من الأيوبيين ثم المماليك، وأخيرًا العثمانيين قد مهّدت السبيل لوجود المغاربة واستمراره في الشام، وعمقت العلاقة بين المشرق والمغرب بزيادة اللحمة الدينيّة والاجتماعية. ولم تكن تسمية هذا الحي أو ذاك بالمغربي، سوى تجمع سكني له طابع خاص في شؤونه الحياتية، وليس حيًا منعزلاً عمّا سواه من الأحياء، ومن ثمَّ كان لتركز هؤلاء المغاربة منذ الأيام الأولى، واستمراره عبر القرون التالية في حياة بلاد الشام دورًا دينيًا وعلميًا، وعسكريًا بارزًا خاصة في دعم المذهب المالكي والرؤيا المغاربية في شؤون الفقه والتصوف، وبفضل هذه الحركة وجد قضاة ومفتون ومديرون وعلماء رحالة في مدن المشرق والمغرب، يعتمدون في حياتهم على دور وزوايا الوقف العام والخاص. ومن ثمَّ عرفت بلاد الشام حركة علمية نتيجة جهود مشتركة بيد المغاربة والمشارقة، وساهم في ذلك أيضًا المتصوفة العلماء الذين استوطنوا بلاد الشام في العصر الحديث. وكان لهم مريدون من أمثال محيي الدين ابن عربي الذي ما يزال ضريحه بدمشق يحتل مكانة في قلوب مريديه من الغرب إلى الشرق.

وإذا كانت الأوقاف بالقدس قد انتهت كما هو معروف بشكل تعسفي ونهائي، أنهى معه وجود من يعرف بالمغاربة وانقطع حبل الوصل بين الغرب والشرق في القدس، فإنّ مدن الشام الأخرى، وبخاصة دمشق ما تزال تقوم فيها الأوقاف بدورها المنوط بها منذ قرون،ولو بشكل خافت ومغمور. فهل حان وقت إحياء الأوقاف لمواكبة تطور الحياة العلمية بين المغرب والمشرق، أو توظيفها لقضايا أوسع وأعمق من قضايا الأمة الاجتماعية والدينية والعسكرية؟

الحواشي:

١. الموسوعة الفلسطينية، مجلد الأول:٥٣٦، ط١، ١٩٨٤م.

٢. دمبر مايكل، سياسة إسرائيل تجاه الأوقاف الإسلامية في فلسطين:٢١٨.

٣. Pouzet: (Louis) Maghrebins VIIe /XIIIe seecle Institut Francais de Damas. Bulletin D'etudes Tome XXVIII Annee 1975.pp:167 -168.

٤. Pouzet pp 168 -170

٥. Pouzet Ibid 188

٦. نعتقد أن اسم الفقراء هنا ليس بمعنى الفقر هو الضعف المادي، ولكن معنى ما يطلق عند العوام بشمال إفريقيا الفقراء، وهم الزاهدون في الدنيا أو الأولياء الصالحين.

٧. رافق (عبد الكريم) بحوث في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي لبلاد الشام في العصر الحديث دمشق سنة ١٩٨٥، ص: ١٤٢-١٤٣.

٨. توجد بالأرشيف الوطني التونسي وثائق عديدة تذكر أوقاف الحجاج في واحات الجنوب التونسي بالخصوص من النخيل، حيث يوجد طريق الحج المغاربي.

٩. الوالي (عبد الكريم)، يوسف باشا القرمانلي والحملة الفرنسية على مصر الطبعة الأولى ١٩٨٤، ص:٣٠٨ - ٣١٠.

١٠. رواه أبو داود وابن ماجه، ورد في كتاب التاج تأليف الشيخ منصور علي ناصيف:ج٢/١٠٧.

١١. الوجود المغربي في الشرق في الشرق المتوسطي في العصر الحديث، المجلة التاريخية المغاربية ع٧-٨ س١٩٧٧.

١٢. المصدر نفسه.

١٣. المصدر نفسه .

١٤. رافق المصدر نفسه.

١٥. المصدر نفسه.

١٦. التازي، المصدر نفسه، وقد أورد المؤلف نص الوثيقة بتحبيس أبي مدين في آخر كتابه.

١٧. مايكل دمبر، المصدر نفسه.

١٨. الموسوعة الفلسطينية المجلد الثالث:٥٣٦، ط١/١٩٨٤م. وانظر كذلك التازي المصدر نفسه، وقد أورد نص وثيقة التحبيس في الكتاب.

١٩. المصدر نفسه مج١/٥٦٥ -٥٦٦.

٢٠. شراب (محمد حسن) موسوعة بيت المقدس والمسجد الأقصى الأهلية للنشر والتوزيع، ط١، عمان - الأردن، ٢٠٠٤ (جزءان) ج٢٣٢ ٣٤٠-٣٤١.

٢١. الجندي (سليم) سياسة الكيان الصهيوني الإستيطانية وآثارها على الشعب العربي الفلسطيني في الأرض المحتلة، مجلد شؤون عربية ع٤٨ سنة ١٩٨٦ تونس.

٢٢. نجم (راتب)، المعالم التاريخية للقدس، مجلة شؤون عربية ع ٤٠ ديسمبر ١٩٨٤.

٢٣. ابن جبير، الرحلة، دار صادر بيروت :٢٥٧.

٢٤. شعبان (عبد المجيد)، ريف دمشق خلال سجلات المحاكم الشرعية (١٧٠٠-١٧٢٥) أطروحة دكتوراه مرقونة تونس ١٩٩٧ -١٩٩٧.

٢٥. الصباغ المصدر نفسه .

٢٦. Pouzet: op -cit

٢٧. شعبان المصدر نفسه .

٢٨. ابن جبير: ٢٨٠.

٢٩. المصدر نفسه .

٣٠. المصدر نفسه .

٣١. ابن بطوطة: ٥٠-٦٢: دار صادر، بيروت.

٣٢. الصباغ المصدر نفسه .

٣٣. المصدر نفسه .

٣٤. شعبان، المصدر نفسه .

٣٥. Pouzet: Ibid p.p 175 -177.

٣٦. الصباغ، المصدر نفسه .

٣٧. وثائق محاكم شرعية دمشق مخطط خان المغاربة طبق محضر:٨٩٦ المؤرخ في ١٤ أب ١٩٦٦. وكان باسم جهة وقف فقراء المغاربة ومصدره مديرية المصالح بدمشق.

٣٨. المخطط المذكور، المصدر نفسه .